الحياة أفعال وردود أفعال

لكل منا مثل أعلي في الحياة وقد تتعدد مناحي الحياة فيتعدد معها الشخصيات التي يتخذها الإنسان مثلاً أعلي فيختص أحدهم بفلسفة الحياة وأخلاقياتها ويختص آخر بأن له مثل اعلي في علوم الإدارة وتحريك الأفراد والأشياء والأموال في منظومة متناغمة وهكذا.

أما مثلي الأعلى الذي بصدد النقل عنه فهو شخصيه سمحة لا تخلو من المهابة نري في عينيها السمو والسماحة التي لا تخلو من الحزم والانضباط سواء كان ذلك علي جانب الذات أو جانب المتعاملين معه وعن هذه الشخصية الكريمة الجميلة العميقة المحتوي والمضمون والتي تقع مني بمنزلة الأب الروحي انقل عنه هذا الدرس الذي اثري جانب من حياتي في تعاملاتي مع الآخر حيث استوعبت هذه الرؤية منذ حداثة تعاملي مع الآخر سواء علي مستوي خذ وهات أو خذ بس أو هات وخذ بعدين ، حيث اختصت هذه الرؤية الفلسفية في التعامل بالأفعال ومردودها وحسابات ذلك وأثرها علي الحياة التي هي من هذا المنظور أفعال وردود أفعال من قبل ومن بعد.

تقول قوانين الطبيعة التي تعلمتاها مبكراً أن لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه ، أما قوانين الحياة فقد تختلف دون أن تلغي النظرية إذ أن في الحياة يكون كل فعل له رد فعل عنيفاً كان أو خفيفاً ، إنما هو رد للفعل حسب درجته وحكيم هو الإنسان الذي يحسب حسابا لرد الفعل قبل كل كلمة يقولها.

ورد الفعل قد يتفق مع الفعل ذاته شكلا ومضموناً كقوانين الطبيعة وقد يختلف عن ذلك كلية كما نراه في تناقضات الحياة، فكم نري مثلاً من قاتل قتل صديقه في لحظة تهور بسبب جنيه أو سيجاره اقترضها الصديق ورفض أن يردها فضاعت الصداقة وضاع معها المنطق وأهدرت الحياة دون ثمة علاقة بين الفعل ورد الفعل.

وعلي العكس من ذلك فكم نري من رد كريم وفاضل لفعل الإحسان في موضع الإحسان مع من يستحق الإحسان يفوق قيمة الإحسان ذاته. فيتفق ذلك مع قول الشاعر أحسن إلي الناس تستعبد قلوبهم - فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ – أما إذا قوبل الإحسان بنكران الجميل فان رد الفعل لنكران الجميل هو عدم استمرار الإحسان وكما قال احد الحكماء " ليست عطية بلا زيادة إلا التي بلا شكر ".

ما قصص الانتقام أو الأخذ بالثأر – وبخاصة في بلاد الريف – إلا ردود أفعال: إن لم تكن في وقتها ، إلا أنها تأتي قطعاً بعد حين. وإن لم تأت من الشخص نفسه فقد تأتي من أولاده أو أتباعه، سواء في مقتنياته، أو ما يجاوز ذلك.

وسياسة القمع التي مارسها الرجل الأبيض في إفريقيا السوداء . كم كان من ردود فعل لها تجاوزت الزمان والمكان – بل واتت بزعيم من السجن ليصبح أول حاكم اسود لجنوب أفريقيا وهو الزعيم مانديلا...

وكذلك من ردود الفعل لاستعمار كثير من دول أفريقيا بواسطة بلاد الغرب كان من نتائجها ظهور حركات استقلالية في أفريقيا نفضت عن كاهلها ذلك الاستعمار، وصارت تحكم نفسها بنفسها... وفي الهند رأينا الفلسفة السلمية تنتصر علي الاستعمار البريطاني بكل أسلحة الفتك التي يملكها، وها هو زعيم مسالم متواضع يخرج منها لتحصل الهند علي يديه علي استقلالها وهو الزعيم المهاتما غاندي صاحب النظرية المتفرده.

لاشك أن التعالي علي الناس له رد فعله أيضاً. وما الثورة الفرنسية الشهيرة في أواخر القرن الثامن عشر إلا دليل أكيد علي هذا الأمر إذ غيرت الإمبراطورية الفرنسية تغييرا كاملا وأتت بشعار " الحرية والإخاء والمساواة " ثم كان لظلم روبسبير رد فعل أخر، ثم كانت دولة نابليون بونابرت وتطورت الأمور.

لذلك علي كل إنسان أن يعمل حسابا لكل فعل قبل أن يقدم عليه. ولكل قوله قبل أن يقولها لان أمراً واحداً قد تكون له ردود فعل متوالية خارج حساباته، وما أصعب ردود فعل القادة والرؤساء، إذ أن التاريخ لا يسقطها من ذاكرته أبداً، لذلك قال الحكيم العربي " قدر لرجلك قبل الخطو موضعها "

وردود الفعل قد تتخطي حدود المكان والزمان.... فالثورة الفرنسية كان لها ردود فعل خارج فرنسا ، والثورة المصرية كان لها ردود فعل خارج مصر، بل أن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان له رد فعل في العالم العربي كله وفي إسرائيل وفي نظرة العالم إلي مصر واحترامه لها.

إن نشاط الإنسان وتكاسله محسوب له وعليه وحتى أفكاره ليست قاصرة عليه بل لها ردود فعلها عليه وعلي كل من يتأثر بهذه الأفكار إيجاباً وسلباً... تأييداً وشجباً.

ما أحوجنا جميعاً للتدبر في أفعالنا واضعين نصب أعيننا ردود الأفعال علي اختلاف جوانبها مقيسه بمقياس التكلفة والعائد سواء علي مستوي الفرد أو المؤسسة أو المجتمع وفقط من خلال هذه النظرة يصبح كلاً منا أكثر فاعلية وأكثر ايجابية وأكثر نجاحاً .

بقلم

دكتور مهندس / نادر رياض
www.naderriad.com